٩- عاش الملك. مات الملك

■ الملك فؤاد الأول

"لا أريد الموت"

قصر القبة

٢٨ إبريل ١٩٣٦م

خسر جزءًا كبيرا من وزنه، كثرت الشامات على جلده، وازدحمت الهالات تحت عينه، حالته النفسية سيئة لأبعد حد، يداه مرتعشتان لا يستطيع حتى أن يوقع وصيته، تلك التي ورثت الفاروق كل شيء، حارب جسده صغيرًا فهزمه كبيرًا، عاش الشباب صاخبًا، تعثراته المالية أكثر من متكررة، يصيح بالإيطالية **"لا أريد الموت"** فهي ثقافته الغالبة، تلك البلاد التي عاش فيها مع والده المعزول إسماعيل في منفاه.

هو أصغر أبناء إسماعيل لكنه أكثرهم طموحًا، حاول أن يصبح ملكا على ألبانيا، طلب من صديق أبيه أن يساعده ليحكم، لكنها أمنيات الصبي، كان شابا عابثا، عاش حياته وشبابه صاخبا حتى أن مشكلاته القديمة مع زوجته الأولى شويكار ما زال يتردد وقعها في كل مكان، لا زالت تبعات عبثه ظاهرة على وجهه، الطلقة التي أصابه بها صهره محفورة على حنجرته، أصابته فأصبح صوته أجش، كان يتحدث ساعتها مع أباني وفجأة انفتح الباب على مصراعيه، جحظت الأعين تجاه هذا الأمير سيف الدين..

التقت نظراته بنظرات فؤاد، أطلق عليه النار، لم يكتفِ بالواحدة بل غمره بعدة طلقات، تركته ملقى على الأرض، وكأنه مات، الدماء تسيل على الأرض وتنهمر والأعين ترقب الأمر دون حراك، كاد أن يموت، كاد ألا يكتب في سجلات الحكام.

الآن يعترك الحياة، على جرف الهاوية يعيش، حالته النفسية في حرب مستمرة مع جسده البالي، ضيقة متقدة، اعتلت صحته أكثر منذ أن صارحته نازلي هانم بطلبها الطلاق، حسبته خانها مع إحدى وصيفات القصر، كانت ناقمة عليه وعلى أفعاله، كان يعاملها بتعالٍ شديد، لم يتمالك نفسه قط، عرشه الآن في اضطراب، وولي عهده في مهب الريح، غريمه الأمير محمد علي توفيق يريد أن يستأثر بالحكم، استند على الإنجليز ليسحب بساط المملكة من تحت أقدام وريثه، لكنه ليس بهذه السهولة، كم كان فطنا وذكيا.

تقلد تاجه في فترة عصيبة، كان تتويجه نبوءة، فعندما أثقلت عليه الحياة، وتكاثرت عليه الديون، دخل عليه خادمه إدريس، هذا الخادم الذي نهض من نومه فرحا ومهللا ومبتسما، وهرع ليقصه على مولاه الأمير، أخبره بأن مكانه القريب هو اعتلاء عرش مصر، وأنه سوف يصبح ملكًا، هنا توقف فؤاد لبرهة،

واعتلى وجهه نظرة دهشة، ولكنه سرعان ما رد على خادمه بابتسامة ساذجة، بعدما جالت بذهنه صورة السلطان المريض في مصر، وتذكر أن للسلطان وريثًا، وهو أخوه الأكبر كمال الدين، كما أنه يوجد في أسرة محمد علي من هو أولى منه بالعرش، كما أنه عاجز عن حكم بلد لا يعرف فيها أي شيء حتى أنه لا يستطيع النطق بلغته، وأيقن أن ما رآه الخادم ليس سوى أضغاث أحلام بعيدة المنال، لكنها الأحلام تحققت وأصبح سلطانا ثم ملكا.

انتقل ساعتها من عالم الحرية إلى عالم القيود والحواجز، وما أقسى قيود الملك إذا حكم في مملكة معلقة النصيب في ميزان القدر، محتلة من الإنجليز ومتحفز له شعب ملتهب بأماني الحرية والاستقلال.. تتصادم فيها أحزاب الاحتلال وأحزاب الاستقلال وحتى أحزاب الاعتدال، معركة ضروس لا تزال آثارها ترج التيجان رجًا وتهدم الأساطير وتهدم النظم الحكومية هدمًا، هو السلطان الذي أعلن نفسه ملكا.

انحاز للمطالب المصرية، حاول أن يبعد مملكته عن تلك التقاليد العثمانية التي عانى منها المصريون، منع ابنه من تعلم اللغة التركية، رفض تسمية أبنائه بأسماء غير عربية،

استبشر بحرف الفاء، ساعد في جلاء الإنجليز عن دولته، لم يكن لقمة سائغة، لم يكن من هؤلاء الذين تحكم فيهم الإنجليز، حاول بكل الطرق استعادة مصر لحقوقها، حاول بعث مصر الثقافية، المثقفون يرونه أكبر الحكام بعد الباشا محمد علي، طور الجامعة وسميت على اسمه، أعاد مجد الدفترخانة (دار المحفوظات العمومية)، جمع كل أوراق أسرته وكل مخاطباتهم، تقرب كثيرًا للعلماء والمثقفين، وحرم الأمراء من توغلهم في الرتب حتى أنهم اغتاظوا منه وضاعفوا في عدم الرضا عنه.

قصر عابدين

٣٠ إبريل ١٩٣٦م

يتصبب عرقا، آلامه واضحة، تسحب منه الحياة ببطء، يحاول مقاومة عزرائيل، تشبث بقلمه، وقع آخر أوراقه، تنهد علي باشا ماهر الصعداء وصاح "عاش الملك.. مات الملك"، صوته يرج جدران القصر، يعلن عن وفاة حاكم عظيم، كان يخاف الموت، لكن الموت ليس بإرادة ملك، بل بيد مالك الملكوت، جسده المحتضر ينقل إلى قصر عابدين، مراسم الدفن تبدأ.

الحشود مكتظة على جانبي الجنازة، قوات الجيش المصري تملأ المكان، شارات الحداد معلقة على ملابسهم الرسمية، النعش يحمل جثمان الفقيد في شوارع القاهرة في مسيرة عسكرية حزينة، المحروسة كلها متجمعة، العلم المصري يزين النعش، هنا لا توجد نياشين، كل الأبهة والعظمة ولى زمانها، هنا مثواه الأخير، النساء ينظرن من شرفات المنازل، الحكماء والعلماء والمشايخ والمثقفون يمشون في المسيرة الأخيرة مع الملك فؤاد، يحتضن مسجد الرفاعي جثمان السلطان الأخير، يرقد بجانب سلالته وأبناء جنسه وأسلافه.

بور فؤاد

أول فبراير ١٩٥٢م

أراد فاروق أن يكرم والده، صنع له تمثالا عزم على وضعه بمدينته التي أنشأها، "بور فؤاد" تلك المدينة التي سميت على اسمه وافتتحها في احتفال مهيب، الصحف تعلن أن فاروق آخر الملوك سوف يمتطي يخته الملكي "فخر البحار" ويزيل الستار عن مجسم لأحد أهم ملوك الأسرة العلوية، لكن الظروف لم تسعفه، عاجلته الثورة وأبعدته الاضطرابات العمالية في ميناء بورسعيد، لم يكن الفدائيون في قناة السويس ليسمحوا بهذا الأمر، إنهم في معركة شرسة مع الإنجليز، حريق القاهرة يؤجل الأمر وكأنه مكتوب عليه، ليس لك مكانٌ هنا.

❊ ❊ ❊

■ ضريح الملك فؤاد